نخب المقتطفات

تنشر تحت هذا العنوان أحسن ما تطالعه
في المجلات والجرائد المختلفة

(الاخاء)

الجامع

﴿ للكاتب الاجتماعي الكبير امين افندي الريحاني ﴾

لم أر بين سائر اماكن العبادة التي أعرفها وقد حملت نفسي المتصوفة وركبتي المتعبتين الى هياكل عديدة — أفضل من الجامع وما أدراك ما الجامع ؟

هو المكان الذي يؤثر فيَّ بديمقراطيته اكثر من سواه ، لما فيه من شواعرها المتنوعة ، فليس في الجامع ما يداهن الاغنياء ، ويكسر قلوب الفقراء ، او يرد ثقيلي الاحمال ، أو يخذل أهل الورع من الاتقياء ، وليست بشاشة الجامع بمقاعده المزدوجة ، ولا رغبة الناس فيه لصدقاته ، أو للخدمة — الصلاة — التي تقام فيه نهار الجمعة ، مأخوذة من القرآن ، وهذا لا تحريف ولا تبديل ، بل هي دائماً لحن من البلاغة تشنف الاسماع ، فيحدث خشوعاً في القلوب لدى اتجاه الافكار نحو الرب الاعلى

الجامع كبير يسع عادة جماعة الخطباء حتى والعابدين النوام ، ويبقى بعد ذلك فراغ لا يحد ، فانه لا يكون ابداً قريباً من الزوايا ساحرة الشكل التي تظلل جماعة المصلين وتقوسهم ، وهم على اختلاف طبقاتهم يجتمعون للصلاة — تحت سقف واحد فتجد بينهم درويشاً متعبداً ، وشحاذاً أعمى ، وحمالا منهوك القوى ، وأعرابياً عليه غبار البرية النائية . وهم كلهم يؤمون الجامع بتمام الورع والخشوع ، طلباً للراحة بعد العناء ؟ أو الاغماض لفترة قصيرة فبعضهم يسجدون أمام المحراب ؟ وآخرون

يتمددون على الرخام البارد تحت الاروقة ، في الوقت الذي يكون فيه شيخ جليل أو أمير عريق في الحسب والنسب راكعاً على سجادة عجمية ثمينة ثم يخر ساجداً ، فينبض قائماً في صلاته

— هنا درويش يتمتم قائلا « بسم الله الرحمن الرحيم» ويعد خرزات مسبحته الى ان تصل نفسه الى درجة الغيبوبة :

وهناك فقير يتناءب ، متبعا تناؤبه بقوله « يا الله ! يا كريم ! » ويخر مكباً على وجهه

وهناك بدوي متمدداً تحت الرواق كانه جثة هامدة ، وليس من ملحن أو جاهل يتعدى على احد المصلين ، أو ينكر عليه

***

الجامع مأوى يرتاح اليه الغني والفقير ، الشحاذ والامير ، وهيكل يضم المؤمنين. ونادٍ يقبل اولاد الله على السواء . هو مكان يعثر فيه المتبوذ على حجر يسند اليه رأسه ، فتكتنفه رهبة القبة الواسعة التي تعلوه . وليس يتخلل سكينة ذلك المكان الرهيب الا كلمات « يا الله ! يا كريم ! ، يا رحمن ! ، يا رحيم ! » — التي تلفظها الصدور بين وقت وآخر . ولئن كان الجامع قائماً في سوق النحاسين تندر دخول صوت اليه من الخارج ، يؤذي رهبة المكان وسكينته . وان النفس فيه لتخشع من هذا السكون ، فتدعو الجسد الى الهدوء والعقل الى التحليق في الملاء الاعلى . تنتبه القلوب ، بلا صنوج ولا أجراس ، بلا آلة موسيقية ، ولا جوقة منشدين ومغنين ، بلا رسوم ، ولا تماثيل — ولكن باضواء الايمان الدائمة التي لا تنطفأ ، تدفع النفس فتجد سبيلا لها خلال السكون ، فائق الوصف ، وبين الرهبة التي لا تحد — الى العزة الالهية الى الاله ، الواحد ، الفرد ، الصمد ، الى الله !

***

دخلت ذات يوم في جامع ، باحدى القرى لاستريح — وقد خلعت حذائي

عند الباب ، متأملا في هذا التقليد الحكيم . فلذلك دواع روحية وحسية معاً . فانه اذا كان من الدناسة ان تدخل في بيت الله ، وحذاؤك في قدميك . فكم بالحري اذا لطخت سجاد الجامع الثمين باوحال الطريق وغبارها ! ؟ ناهيك اني خلعت حذائي امتثالا للعادة ، ولانه كان ضيقاً على قدمي . ولا اخال الا كثيرين يرتاحون الى هذا التقليد ، ويجدون فيه راحة ، كما شعرت !

ولم يكن قد دخل في الجامع سوى مصلين . رجل وقور ، طاعن في السن جلس في احدى الزوايا ، وشحاذ قريب من العراء ، جامد في الزاوية الاخرى — أما أنا فقد جلست على حصير ، تحت رواق ، مسنداً ظهري الى عمود ، ممدداً ساقي ، وكنت اذ ذاك كاني في منزلي ! !

ان الراحة من أصول التعبد الحقيقي وهذا ما نجده في الجامع ، في كل ساعة من ساعات النهار ، وفي كل ساعة من ساعات الليل . ولقد صليت كما أحببت وخرجت مع رفيقي في الصلاة ، واخوي بتسبيح الله : أما الشحاذ فكان حمالا ، وقد ترك حمله عند الباب . واذ تعذر عليه رفعه ، أسرع الشيخ المهاب لمعونته مشمراً كميه الحريريين عن ساعديه ، مبتدئاً بقوله : « بسم الله ! » . وانحنى الحمال تحت حمله الثقيل ، وقد تشنجت رقبته بالحبل المشدود حول رأسه ، ثم مشى بخطوات متثاقلة ولكنها خطوات ثابتة — بقوة الله

والتفت الشيخ الي ، وقال لي مشفقاً :

— « أأنت مسلم ؟ »

فأجبته ، وانا أشد حذائي : « ولكني أعبد الله واحترم النبي ! »

حينئذ دعاني الى تناول الغذاء على مائدته فان الغرباء اذ يلتقون في الجامع يصبحون اخواناً

(القصص)